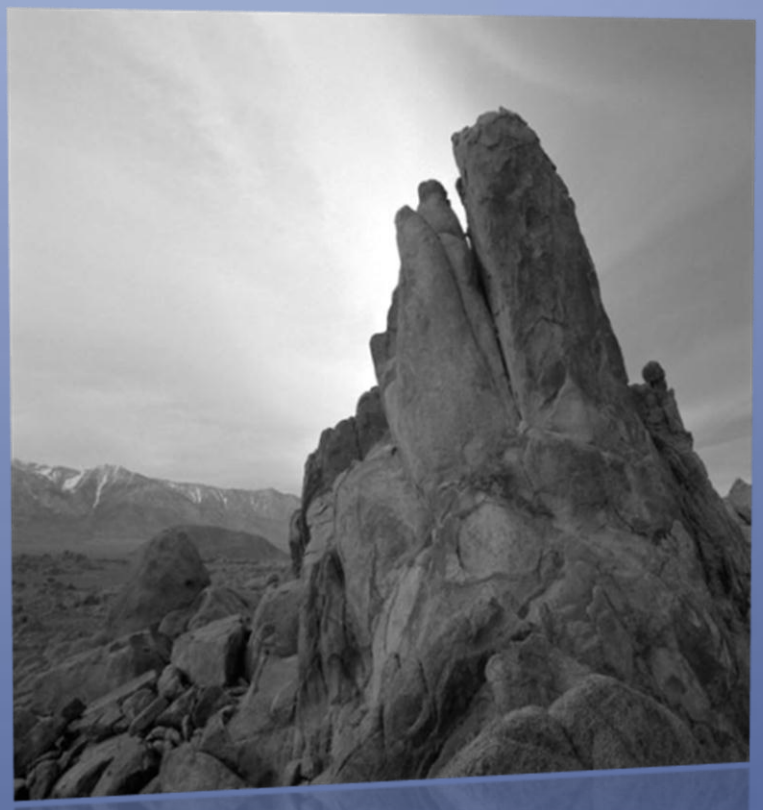


التاريخ السوداني القديم

ترجمة :

نشوان زيد علي عنتر

٢٠١٣م

التاريخ السوداني القديم

(مقتطفات من كتب التاريخ الغربية المعاصرة)

ترجمة :

نشوان زيد علي عنتر

٢٠١٣م

مقدمة :

في الالف السابع قبل الميلاد استوطن سكان حضارة العصر الحجري الحديث القرى المبنية بالوحل و الطين الجامد و تبنوا الاساليب العملية في الحياة هناك حيث اعتاشوا على الصيد و صيد السمك في النيل مع تجميع البذور و تربية الماشية[1]، خلال الالف الخامس قبل الميلاد قدمت هجرات من الصحراء القاحلة دفعت سكان العصر الحجري الحديث الى وادي النيل فورا الى الزراعة ، فهذا التجمع السكاني ناتج من الاختلاط الجيني و الثقافي و تطور الى سلم اجتماعي لقرون لاحقة و نشأت على اثرها مملكة كوش (مع عاصمتها في كرمة) في ١٧٠٠ ق.م .

تشير الابحاث الانثروبولوجية و الاثرية الى انه خلال فترة ما قبل السلالات النوبة و نجدان بمصر العليا كانتا تقريبا معروفتان عرقيا و حضاريا ، و من خلالهما ساهموا في نشأة انظمة الملك الفرعوني في ٣٣٠٠ ق.م[2] .

---

[1] "Early History", Helen Chapin Metz, ed. Sudan A Country Study. Washington: GPO for the Library of Congress, 1991.

[2] S.O.Y. Keita (1993). Studies and Comments on Ancient Egyptian Biological Relationships. STOR. Retrieved 2011-02-07.

و مع الدول الاخرى المطلة على البحر الاحمر اجمع ، عد السودان افضل موقع في الاقليم المعروف بالنسبة للمصريين القدماء باسم بونت (او تانيتجيرو و تعني ارض الذهب) حيث يعود تاريخ هذا المصطلح المذكور لاول مرة الى القرن الخامس و العشرين قبل الميلاد [٣].

[٣] Simson Najovits, Egypt, trunk of the tree, Volume 2, (Algora Publishing: 2004), p.258.

عصور ما قبل التاريخ :

مملكة كوش :

كان اراضي السودان موطنا لممالك قديمة عدة ، فالكتابات التاريخية المبكرة لشمال السودان و المنبثقة من المصادر المصرية و التي وصفت ارض اعلى مجرى النهر من اول نظرة و المعروفة بكوش بانها ((السفلى)) لأكثر من الفي سنة من فترة المملكة القديمة (٢٧٠٠- ٢١٨٠ ق.م) ، قد سيطرت و بسطت نفوذها الاساسي على جارتها الجنوبية ، و كذلك في وقت لاحق ، بقي التراث المصري الثقافي و الديني مهما فيها لقرون[٤] .

و تطورت التجارة اليهم ، فحملت القوافل التجارية المصرية القمح الى كوش و عادت الى اسوان بالعاج و الطيوب و الجلود و العقيق الاحمر (حجر يستخدم لتزيين المجوهرات و رؤوس السهام) مشحونة بالنقل النهري ، قدروا الحكام المصريين بشكل استثنائي الذهب النوبة و جنودها في الجيش الفرعوني ، تغلغلت الحملات العسكرية المصرية في فترة من الفترات كوش خلال عهد المملكة القديمة .

---

[٤] Krump on the City of Sinnar THE SUDANESE TRAVELS OF THEODORO KRUMP by Jay Spaulding, 1974.

و بعد ذلك لم يكن هناك اية محاولة مملكة اخرى و السماح بوجودها على الارض حتى المملكة الوسطى (٢١٠٠ – ١٧٢٠ق.م) ، و عندما بنت مصر شبكة من الحصون على طول النيل حتى الجنوب كسمنه في الجنوب المصري لحماية امدادات الذهب من مناجمه في وعوات[٥].

حوالي ١٧٢٠ ق.م ، استولى البدو الكنعانيين الساميين المعروفين بالهكسوس على مصر منهية فترة المملكة الوسطى و دمر كافة الحاميات المصرية العسكرية في كوش و حصونها على طول النيل الازرق لتسقط في حالة فراغ بعد انسحاب المصريين منها ، تطورت مملكة كوش الاصلية حضاريا بشكل مختلف في كرمة القريبة في الوقت الحاضر من جزيرة دنقلة ، فبعد عودة الروح للحكم المصري مجددا خلال المملكة الحديثة (١٥٧٠ – ١١٠٠ ق.م) ، ضم الفرعون احمس الاول كوش و جعلها مقاطعة مصرية يحكمها نائب للملك .

على الرغم من الاشراف الاداري لكوش الممتد حتى حدود الشلال الرابع ، فقائمة المصادر المصرية للمقاطعات الفرعية تصل الى حدود البحر الاحمر و اعلى النهر المواجه للالتقاء النيلين الازرق و الابيض ، سعت السلطات المصرية للتأكد

[٥] http://www.sudantribune.com/South-Sudan-celebrates-Torit,28325

علـــى ولاء الزعمـــاء المحليـــين عبـــر رهـــن اطفـــالهم ليعملـــوا خـــداما فـــي بـــلاط الفرعـــون بمصـــر ايضـــا (اســـتثنت القائمـــة الـــذهب و العبيد من رؤساء كوش) .

فـــي احـــدى المـــرات فرضـــت مصـــر الســـيادة العســـكرية و السياســـية علـــى كـــوش و وطنـــت المـــوظفين و التجـــار و رجـــال الـــدين و الفنـــانين فـــي المنطقـــة ، اصـــبحت اللغـــة المصـــرية متداولـــة بشـــكل واســـع فـــي كافـــة المجـــالات ، العديـــد مـــن الملـــوك الكوشـــيين فضـــلوا عبـــادة الالهـــة المصـــرية و بنـــوا لهـــم المعابـــد ، و بقيـــت مراكـــز لعبـــادة الديانـــة الرســـمية حتـــى مجـــئ المســـيحية الـــى المنطقـــة خـــلال القـــرن الســـادس المـــيلادي ، و عنـــدما انهـــار النفـــوذ المصـــري او استســـلم لصـــالح الســـيادة الاجنبيـــة ، و اعتبـــر المنفصـــلون الكوشـــيون انفســـهم القـــوة المركزيـــة و الممثلـــين الوحيدين للثقافة و الدين المصريين[٦] .

فـــي القـــرن الحـــادي عشـــر قبـــل المـــيلاد ، ضـــعف ســـلطة الاســـر الحاكمـــة فـــي المملكـــة الحديثـــة و الانشـــقاقات التـــي اصـــابت الحكـــم فـــي مصـــر ســـهلت انهـــاء الســـيطرة المصـــرية علـــى كـــوش ، مـــع انســـحاب المصـــريين هنـــاك لـــم تظهـــر ايـــة كتابـــة او أي نقـــش او معلومـــات مـــن كـــوش عـــن نشـــاطات المنطقـــة حـــوالي ثلاثمائـــة

[٦] a b c d e "Early History", Helen Chapin Metz, ed. Sudan A Country Study. Washington: GPO for the Library of Congress, 1991.

سنة مضت ، و في مطلع القرن الثامن قبل الميلاد نهضت كوش كمملكة مستقلة و قاعدة حكمها كان في نبتة عبر هجومها على الممالك المجاورة حتى مصر و ضمها ضمن نفوذها ببطء .

و حوالي عام ٧٥٠ ق.م ، غزا الملك الكوشي المعروف كاشتا مصر العليا و اصبح حاكم طيبة حتى ٧٤٠ ق.م تقريبا ، و استولى خليفته الملك بيانكي على الدلتا و احتل مصر ، و انشا اثناءها الاسرة الخامسة العشرين و اسس سلالة من الملوك الذين حكموا كوش و طيبة لمدة حوالي مئة سنة ، اصطدمت بضغط النفوذ الاشوري في الشرق الادنى و تسبب بصراع بين مصر و الامبراطورية الاشورية القوية التي تحكمت بإمبراطورية ضخمة شملت الشرق الاوسط و اسيا الصغرى و القوقاز و شرق المتوسط انطلاقا من ارض بلاد ما بين النهرين .

هزم تاهرقا (٦٨٨ – ٦٦٣ ق.م) و هو اخر فرعون كوشي امام الامبراطور الاشوري سنحاريب الذي اخضع الشرق الادنى بأكمله .

ذهب اسرحدون خليفة سنحاريب ابعد من ذلك ، و قرر بملء ارادته غزو مصر في ٦٧٤ ق.م ، انتصر على تاهرقا و احتل

البلاد ، فر الثاني الى النوبة ، و ثبت الاشوريون الامراء المصريين المحليين كتابعين لاسرحدون ، الا ان تاهرقا سرعان ما قام بالعودة بعد بضع سنوات و استولى على اجزاء من مصر بعيدة عن طيبة الخاضعة للآشوريين و اتباعهم من الامراء المصريين .

مات اسرحدون في عاصمته نينوى بينما كان يعد العدة للعودة الى مصر اكثر من ذي قبل لطرد الكوشيين منها [٧]، فوجه خليفته اشور بانيبال جيشا صغيرا انتصر على تاهرقا و طرده من مصر مجددا ليموت الاخير في النوبة بعد سنتين من الغزو ، حاول خليفته تانوت امون حكم مصر و انتصر بشكل ناجح على نيخو الاول الحاكم الدمية المعين من قبل اشور بانيبال و استولى على طيبة في غضون ذلك .

عندئذ ارسل الاشوريون جيشا قويا نحو الجنوب ، و هزمهم تنتاماني بصعوبة و حاصر الجيش الاشوري طيبة من كافة الجهات دون ان ينقذها الاول منهم ابدا .

حل الحاكم المحلي بسمتيك الاول محله على العرش كتابع لأشور بانيبال منهيا بذلك الامبراطورية الكوشية – النوبية .

[٧] Georges Roux - Ancient Iraq

مملكة مروي :

السلالة المصرية الحاكمة آنذاك فشلت في استعادة السيطرة الكاملة على كوش حوالي ٥٩٠ ق.م ، الا ان الجيش المصري حاصر نبته ليجبر الكوشيين عن الانسحاب منها ليبحثوا عن مكان بديل ابعد منها في الجنوب عند مدينة مروي قرب الشلال السادس ، و لقرون عدة مضت تطورت مملكة مروي بشكل مستقل عن النفوذ و الحكم المصري الذي سقط امام الاحتلال الفارسي و اليوناني و اخير الروماني ، و ازدادت قوتها ابان القرنين الثالث و الثاني قبل الميلاد و استولت على المنطقة الممتدة من الشلال الثالث في الشمال الى سوبا قرب الخرطوم في وقتنا الحاضر في الجنوب ، نمط الحكم المصري الفرعوني الطابع ظل متداولا لدى مجموعة من حكام مروي و الذي دفع الناس الى تسجيل اعمال حكامهم و انشاء الاهرامات المحتوية على قبورهم ، فهذه اطلال و اثار القصور و المعابد و الحمامات في مروي تعود الى تركيز النظام السياسي على توظيف مهارات الفنانين و الحرفيين و توجيه العمال لإنجاز المباني الضخمة ، فضلا على ان الادارة الجيدة للري سمحت بتعزيز النمو السكاني

في المنطقة و الذي ارتفع اكثر من نظيرتها في القرون اللاحقة .

في القرن الاول قبل الميلاد ، تم استبدال الخط الهيروغليفي بنظيره المروي الذي سار على نهج الكتابة المصرية لصالح نظيرتها المحلية المرتبطة باللغة النوبية التي يتكلم بها سكان المنطقة ، نظام الحكم اللاحق في مروي لم يكن وراثيا بالضرورة ، فالأسرة الملكية شريكة في الحكم ، و احد اعضائها الذي يدلي برايه فيحظى باحترام الجميع غالبا ما يصبح الملك ، و دور الملكة الام في عملية اختيار الملك كان محوريا في التداول السلس للسلطة ، و يعتقد ان التاج كان ينتقل من الاخ الى الاخ (او الاخت) فقط عندما ينعدم وجود اقارب لهم من الاباء الى الابناء .

على الرغم من ان نبته ظلت عاصمة مروي الدينية ، الى ان شمال كوش سقط اخيرا في حالة فوضى ناتجة عن الضغوط الممارسة من قبل البطالمة ، فتعرضت للنهب و السلب من قبل البدو القادمين من شرق النيل ، الا ان النيل استمر في ارواء المنطقة حتى الارض المطلة على البحر المتوسط ، في غضون ذلك ، منحت مروي عقودا و تراخيص للتجار الهنود و العرب على طول سواحلها في البحر الاحمر و صبغت

الحيـــاة اليوميـــة فيهـــا بتـــأثيرات الثقـــافتين اليونانيـــة و الهلنســـتية ، و مـــن المقتـــرح انـــه هنـــاك دلـــيلا شـــبه اكيـــد علـــى ان تكنولوجيـــا التعـــدين ربمـــا قـــد انتقـــل الـــى الغـــرب مجتـــازا حـــزام غابـــات الســـافانا الى غرب افريقيا عبر صاهرو المعادن المرويين .

لـــم تكـــن العلاقـــات بـــين مـــروي و مصـــر فـــي حالـــة ســـلام ، و ردا علـــى غـــزوات مـــروي لمصـــر العليـــا ، تحـــرك الجـــيش الرومـــاني صـــوب الجنـــوب و دمـــر نبتـــة فـــي ٢٣ ق.م مـــا لبـــث القائـــد الرومـــاني تـــرك المنطقـــة بســـرعة ، الا انـــه اعتقـــد ان المنطقـــة افقـــر مما يجب و استعمارها غير مضمون .

فـــي القـــرن الثـــاني المـــيلادي ، احتـــل النـــوبيين الضـــفة الغربيـــة لنهـــر النيـــل الواقـــع شـــمال كـــوش ، و مـــن المفتـــرض انهـــا واحـــدة مـــن فـــرق الهجانـــة العديـــدة و الجيـــدة التســـليح التـــي باعـــت ولاءهـــا لصـــالح المجتمـــع المـــروي مـــن اجـــل الحمايـــة ، و اخيـــرا تزاوجـــوا و اســـسوا لأنفســـهم طبقـــتهم الارســـتقراطية العســـكرية داخـــل الشـــعب المـــروي حتـــى حـــوالي القـــرن الخـــامس المـــيلادي عنـــدما دعمـــت رومـــا النـــوبيين و اســـتخدمت مـــروي كدولـــة حـــاجزة بـــين مصـــر و البلميـــين ، بمعنـــى اخـــر ، ان المملكـــة المرويـــة القديمـــة تقلصـــت بســـبب الغـــزو العســـكري القـــوي لمملكـــة اكســـوم الاثيوبيـــة نحـــو الشرق .

فـــي ٣٥٠م اســـتولى ملـــك اكســـوم عيزانـــا علـــى مدينـــة مـــروي و دمرهـــا منهيـــا بـــذلك وجـــود مملكتهـــا و اســـتقلالها و احتـــل اراضـــيها الواقع في الوقت الحاضر شمال السودان .

.

العصور الوسطى :

مملكة النوبة المسيحية (مكوريا ، نوبة ، علوى) :

فترة مملكة النوبة المسيحية مكونة من ثلاث دول ، مكوريا ستحل محلها النوبة لاحقا ، يلاحظ ان الحدود بين علوديا و مكوريا غير واضحة ، الا انها كانت في مكان ما بين الشلالين الخامس و السادس.

في القرن السادس الميلادي ، نشأت ثلاث دول كورثة لمملكة مروي على الصعيدين السياسي و الثقافي ، النوبة في الشمال و عاصمتها فرص و هي الان في مصر ، مملكة مكوريا الوسطى و عاصمتها دنقلة المدينة القديمة الواقعة على النيل و تبعد في الوقت الحاضر حوالي ١٥٠ كلم عن جنوب جزيرة دنقلة ، و علوى الواقعة قلب مملكة مروي القديمة في الجنوب و عاصمتها سوبا ، في جميع الممالك الثلاثة حكمت الطبقات الارستقراطية العسكرية الشعوب المروية عبر اسر ملكية التي موظفوها يستخدمون الالقاب اليونانية محاكاة لنظيراتها في الاسر الملكية البيزنطية .

المراجع المبكرة لممالك النوبة اللاحقة تكونت في كتب المصنفة من قبل المؤلفين اليونانيين و المصريين الاقباط

لحظة اعتناق الملوك النوبيين للديانة المسيحية في القرن السادس الميلادي ، و وفقا للتعاليم ، ارسل الامبراطور البيزنطي تيودورس المبشرين الذين وصلوا الى النوبة و بدأوا بتبشيرهم لتعاليم الانجيل حوالي ٥٤٠م ، و من المحتمل ان عملية الاعتناق للمسيحية بدأت بشكل مبكر جدا ، الا انه تحت رعاية المبشرين الاقباط القادمين من مصر قبل الملوك النوبيين بالمسيحية على المذهب المينوفيزي المطبقة في مصر للسلطة الروحية لبطريركية الاسكندرية القبطية المصرية المشرفة على الكنيسة النوبية ، كرس تراث الاساقفة المعينين من قبل بطريركية الاسكندرية في مصر توجه نشاطاتهم الكنسية و تدربهم على النظام التراتبي الاكليركي .

ايدت الكنيسة نظام الملكية الكهنوتية و اكدت على شرعية السلالة الملكية و بالتالي حمى الملك مصالحها ، لعبت الملكة الام دورا محوريا في العملية السياسية يشبه الى حد ما نظيره في التقاليد الاصلية في مروي لان النساء اضحى من حقهن تولي الحكم ، المحارب المشهور و لا ينتسب الى السلالة المالكة ربما يحق له ان يكون ملكا من خلال زواجه بامرأة تنتمي الى العائلة الحاكمة .

اعـــاد ظهـــور المســـيحية فـــتح قنـــوات الاتصـــال بالحضـــارة المتوســـطية و جـــدد الـــروابط الايدولوجيـــة و الثقافيـــة النوبيـــة بمصـــر ، فشـــجعت الكنيســـة الادب فـــي النوبـــة عبـــر قساوســـتها المـــدربين فـــي مصـــر و مدارســـها الرهبانيـــة و الكنســـية مســـتخدمين اللغـــة اليونانيـــة فـــي طقوســـهم الدينيـــة التـــي فـــي الاخيـــر اثـــرت كثيـــرا فـــي مفـــردات اللغـــة النوبيـــة التـــي كانـــت تكتـــب عبـــر ابجـــديتها الاصـــلية التـــي جمعـــت عناصـــر مـــن الكتـــابتين القبطيـــة و المرويـــة القديمـــة ، الا ان التـــأثيرات المصـــرية مازالـــت محصـــورة فـــي المجـــالين الكنســـي و التعليمـــي فحســـب ، فضـــلا ان النقـــوش القديمـــة دلـــت علـــى اســـتمرار النـــوبيين فـــي تعلـــم اللغـــة اليونانيـــة المحكيـــة حتـــى اواخر القرن الثاني عشر الميلادي .

و بعـــد القـــرن الســـابع المـــيلادي زادت اهميـــة العـــرب الســـاميين بالنسبة للملوك النوبيين و لاسيما كوسطاء تجاريين .

ظلـــت الممالـــك النوبيـــة المســـيحية علـــى قيـــد الحيـــاة لقـــرون عـــدة و بلغـــت قمـــة نجاحهـــا و قوتهـــا العســـكرية فـــي القـــرنين التاســـع و العاشـــر المـــيلادي ، الا ان الغـــزاة العـــرب المســـلمين الـــذين غـــزو مصـــر عـــام ٦٤٠م شـــكلوا تهديـــدا شـــديدا للأولـــى ، فالنوبـــة و مكوريـــا انـــدمجا و شـــكلا مملكـــة دنقلـــة قبـــل عـــام ٧٠٠م تقريبـــا ، و علـــى الـــرغم مـــن ان العـــرب قـــد تخلـــوا مـــن قبـــل عـــن محـــاولاتهم

لضم النوبة بالقوة ، فان سيطرتهم على مصر و اضطهاد المسيحيين المصريين الاصليين غالبا ما صعب عملية الاتصال مع البطريركية القبطية او الحصول على القساوسة المدربين في مصر ، و نتيجة لذلك اضحت الكنيسة النوبية معزولة من بقية العالم المسيحي .

أسلمة السودان :

ممالك الفونج و الشلك و التيغالي و الفور (١٨٠٠م) :

دخل الاسلام الى مصر عام ٦٤٠م و تقدم انتشاره الى الجنوب حوالي ٦٥١م حيث اغار والي مصر في عهد الخليفة المحمدي عثمان بن عفان على دنقلة ، فواجه العرب او المسلمون مقاومة شديدة منهم ، و تراجعوا عن اجتياحهم و عقدوا معهم معاهدة عرفت بباقت و التي وقعت بين العرب و مكوريا الى عام ٧٠٠م .

كانت المنطقة الواقعة بين النيل و البحر الاحمر من اهم مصادر الذهب و الزمرد و تحرك المنقبون العرب الى هناك بالتدريج ، و حوالي ٩٧٠م ذهب المبعوث العربي ابن سليم الى دنقلة و كتب فيما بعد وصفا عنها يعتبر الان من اهم مصادرنا حول هذه الفترة ، و على الرغم من باقت بشمال السودان قد اضحت قابلة لاسلمتها و تعريبها ، فان مكوريا انهارت في القرن الرابع عشر الميلادي تحت اجتياح علوديا لها لاحقا .

اما ما نعرفه عن تاريخ جنوب السودان فهو على ما يبدو انها كانت موطن للقبائل السامية البدوية المتنوعة ، و من بين هذه

القبائل التي ظهرت في القرن السادس عشر الميلادي عرفت بالفونج و انطلقت شمالا و اتحدت مع النوبة مشكلة معها مملكة سينار ، و اعتنق ملوك الفونج الاسلام بسرعة و يصبح الدين الاكثر رسوخا فيها ، و في نفس الوقت نشأت سلطنة دارفور في الغرب ، و تأسست بينهما دولة تكالي في تلال النوبة .

كان الاقتصاد السوداني معتمدا على الاقطاع بمعية عدد هائل من الرقيق الداعمين للنخبة الحاكمة في مملكة الفونج [٨]، و تاجروا بهم على طول المنطقة و جنوا ثروة غزيرة منهم لمملكتهم .

(النهاية)

[٨] Krump on the City of Sinnar THE SUDANESE TRAVELS OF THEODORO KRUMP by Jay Spaulding, 1974.